القومية العربية السائد . جوهر هذه النظرة الصهيونية البديلة هو النظر الى الشرق الاوسط كمنطقة اقليات — عنصرية ودينية معا ، وان كان المؤلف يفضل التركيز على الاقليات الدينية ، لا كمنطقة قومية عربية. وفي تقديم هذه النظرة البديلة لا يغفل خدوري ان يستمر في انتقاد دخول حركة التحديث الى منطقة الشرق الاوسط تلك الحركة التي يحملها خاصة مسؤولية المصير الذي آلت اليه بعض الاقليات في منطقة الشرق الاوسط : الارمن في تركيا ، والاشوريون في العراق والتجمعات اليهودية في بعض اقطار الوطن العربي . يبدو خدوري هنا رائيا لتقاليد الامبراطورية العثمانية متأسفا على ما كان محتما ان تأتي به حركة التحديث في الشرق الاوسط من نتائج قد لا تكون كلها باعثة على السرور . واصرار خدوري على فهم المنطقة العربية عن طريق التصنيف الديني دفعه الى تكريس دراسته عن « الديانة والسياسة » الى مسيحيي المشرق العربي والى دورهم القومي الذي يغالط المؤلف فيفسر حوافزه تفسيرا دينيا . حماسة المسيحيين العرب للعروبة وتقديرهم للاسلام يبدو لخدوري تعبيرا عن شعورهم الداخلي بعدم الاطمئنان وسط مجتمع مسلم . اما حماستهم في مناهضة الصهيونية — ولا سيما الفلسطينيون منهم — فلا يفوت خدوري ان يرى فيها مناهضة للسامية قادمة من الغرب المسيحي .

ودراسة خدوري عن « هربرت صاموئيل وحكومة فلسطين» تمجيد شخصي للمندوب السامي البريطاني الاول في فلسطين الذي أوكلت اليه حكومة لندن كيهودي صهيوني بريطاني مهمة البدء بتنفيذ وعد بلفور في نطاق نظام الانتداب . محور هذا التمجيد الشخصي هو محاولة اظهار صاموئيل في فترة توليه مهمته بمظهر الاداري الحكيم المتعاطف — أبويا تقريبا ! — مع العرب رغم صهيونيته شخصيا ورغم صراحة المهمة التي قدم لتحقيقها ، ورغم الضغوط الممارسة عليه من قبل المنظمة الصهيونية . ولكي يثبت خدوري صفات « المحسن » على صاموئيل يذكر اربع حوادث يدرس فيها مواقف صاموئيل . هذه الحوادث هي انتخاب المفتي امين الحسيني وتشكيل المجلس الاسلامي الاعلى وقضية المجلس التشريعي وقضية تأييد صاموئيل لنوع من الوحدة او الاتحاد بين بعض اقطار المشرق العربي . لن نبحث هنا في تفاصيل هذه الحوادث ومواقف صاموئيل منها . يكفي ان نقول ان ما اثبته خدوري من مواقف صاموئيل لا يثبت احسان ومحاسن صاموئيل بالقدر الذي يثبت به حقيقة كبرى من حقائق القضية الفلسطينية . تلك الحقيقة الكبرى هي انه حتى اشد الصهاينة تطرفا لا بد له حين يتعرف على الوقائع ويتعلم منها الا ان يصبح اكثر تفهما — ولا نقول متفهما — للحق العربي في فلسطين حتى ولو كانت مهمته الرسمية ورغبته الشخصية تكمن في هدر ذلك الحق ، اللهم الا اذا كان تطرفه قد سد عليه حواسه كلها . هذه الحقيقة تفسر ايضا ظاهرة تكرر تذمر الصهاينة المتطرفين من تصرفات كثير من الموظفين البريطانيين اثناء الانتداب ، في الحين الذي كان فيه هؤلاء الموظفون يقدمون بأنفسهم المساعدة للصهاينة لتحقيق اغراضهم — كل ذنب هؤلاء الموظفين كان انهم تعلموا شيئا ما ، عن طريق احتكاكهم اليومي بالعرب ، عن عدالة القضية العربية . هذه الحقيقة لم يدركها خدوري او على الاصح ادركها فتجاهلها .

المؤلف الذي استعرضنا وانتقدنا كتابه فيما سبق صهيوني بحاتة لا شك بكلتا صفتيه . والدراسات التي تجمعها دفتا هذا الكتاب جدية وان كانت لا تخفي غرضا ، ومع ما فيها من دقة وقائعية وتوثيقية الا ان تحيز كاتبها الواضح ينفي كثيرا من قيمتها. وعلى كل حال فان الكتاب تمثيل حذق للنظرة الصهيونية لا سيما حين يتوجه المؤلف خاصة الى قراء انجلو — امريكيين . فمع انتقاده للسياسة البريطانية وبعض اوجه النشاط الامريكي في المنطقة ، ثمة مناشدة توحي ونصح يوجه بحذر وثقة معا . وفي ثنايا الكتاب تتردد انفاس رجعية رهيبة تفضح رجعية الصهيونية، فهي تود لو أغلق أمام الشرق الاوسط باب العصر ليبقى نائما في سديم تقليدي منفعل وتتردد فيه ايضا تمنيات يائسة تود لو ينظر الى الشرق الاوسط كمنطقة اقليات لا تبرز من خلالها الحقيقة العربية برسوخها وشموخها . واذا كان المؤلف يخطىء ويغالط في اكثر ما يقرر او يثبت ، فان ذلك ليس بالسبب الكافي لنمر بالكتاب خفافا ، فخدوري بحاتة يعرف مصادره جيدا ويعرف كيف ينتقي منها ما يناسب غرضه جيدا . وبهذا المعنى فان كتاب خدوري دعوة للباحثين العرب لكي يكتبوا بأنفسهم تاريخهم القومي بشكل موضوعي مقنع .

جورج جبور